إيلاف

طباعة

كتبها : أحمد الشامي - بتاريخ : 2/4/2012 12:02:26 PM, التعليقات : 0

سوريا : في الطريق إلى دولة العصابة 1-8

1-الجذور:

" لكي نفهم النظام السوري لا يكفي أن نطالع علم السياسة، بل يجب مشاهدة فيلم العراب". الشهيد سمير قصير.

هذا الوصف الذي كلف الشهيد سمير قصير حياته هل هو فعلاً ما يعبر عن طرائق عمل النظام السوري ؟ هل يستطيع علم الجريمة و علم النفس الإجرامي تفسير نشأة و تطور نظام القمع الأسدي بأحسن مما يقدر علما الإجتماع و السياسة ؟ هل هي صدفة أن فيلم "العراب" كان الفيلم المفضل لصدام حسين ؟

هذا ما نريد التنطع له و محاولة فهم أسباب "صمود" النظام الأسدي و تماسكه في وجه شعبه ، إضافة إلى تفسير انعدام الانشقاقات في صفوف ضباطه الكبار و سياسييه، ناهيك عن الدبلوماسيين.

كيف وصلت طبقة كاملة من المنتفعين و الوصوليين إلى السلطة وكيف تماهت مع النظام الذي يقتل شعبه بلا حساب؟ أيعقل أن لا يوجد شخص واحد في هذا النظام لديه ضمير لينأى بنفسه عن المجزرة ؟ أي نظام هذا الذي ينعدم لدى كل زبانيته كل ضمير و يتصرفون جميعاً و كأنهم على قلب رجل واحد وقد اجتمعوا على القتل والبغضاء ؟

في تصوري أن النظام السوري سيبقى فريداً في تاريخ البشرية و أنه لم يلق حقه من الدراسة و البحث. أغلب الكتابات التي تتطرق للنظام و لمآلاته تكتفي بفضح ممارساته و بتبيان تناقضاته ، دون الغوص في أعماق نفسيات رجالات النظام و دون تحليل دوافع هؤلاء و أهدافهم المستترة وراء خطاب شعبوي و مقاوم لا هدف له غير إخفاء بشاعة دوافع النظام الحقيقية.

في هذه المقالات سنستعين بمبادئ علم النفس والتحليل النفسي، و بعلم الجريمة و النفس الإجرامي، و كذلك بالفلسفة الظاهرية (Phenomenology) . هذه الفلسفة، وتلك العلوم، تدرس الأمور، بما فيها تلك السياسية، كظواهر تحكمها قوانين منطقية بهدف اكتشاف هذه القوانين و فهم ترابط هذه الظواهر مع بعضها و تسلسلها، اهتداء بالواقع وبما هو مثبت، دون التمسك بخطاب أو بنظريات قد يثبت قصورها عن تفسير الواقع بشكل عقلاني و منطقي.

المطلوب هو رؤية الواقع كما هو و ليس كما نريد أن يكون، ثم الانطلاق إلى محاولة فهم هذا الواقع عبر تحليل منطقي و عملاني، غير نظري و غير مثالي، بعيدا عن الرغبات و التمنيات. بكلام آخر، نريد دراسة نشوء و تطور النظام الأسدي تماماً كما لو كان الأمر متعلقاً بفعل إجرامي و ليس كمجرد ظاهرة سياسية.

لا بد في هذا الحال من دراسة نفسيات اللاعبين الأساسيين في النظام السوري ، الأب ثم الابن في محاولة لفهم دوافعهم و أهدافهم و كيف وصلوا إلى مبتغاهم. ماهي العوامل التي سهلت وصولهم إلى الحكم و لماذا دام بقاؤهم في السلطة. هذا سيساعد ربما على تفسير تحركاتهم المقبلة و استقراء أهدافهم المستقبلية.

قراءة سيرة الأسد الأب المتوفرة للقارئ العربي لا تسمن ولا تغني من جوع. هذه الرواية الرسمية شبيهة بسيناريو الأفلام الهندية التي تهدف للتسلية لا للفهم. حافظ الأسد نشأ في قرية غنّاء "أشبه بالريف الفرنسي" على قول باتريك سيل في كتابه الشهير. أبوه علي الأسد "رجل وقور و محترم يعلي قدر التعليم و الثقافة" و جدّه "سليمان الوحش" كان مضرب المثل في القوة و الشجاعة والحكمة " فكان أهل القرى يحكّمونه في أمورهم" أيضاً على قول باتريك سيل. وفق الرواية المعتمدة : حافظ الأسد توصل "بذكائه و حنكته" إلى تجاوز وضاعة منشئه و صار رئيساً "علوياً" لبلد أغلب سكانه سني مسلم.

سيناريو مثالي لفيلم سينمائي مسلي. لكننا جميعاً نعرف أن الشاشة الفضية شيء و الواقع شيء آخر.

القراءة الأولية لسيرة الأسد، استنادا لذات المصدر، تعلّمنا أن الأسد الأب جاء من أسرة تعلي من شأن التعليم و المعرفة، قائمة على الطاعة المطلقة بل و الخضوع لسلطة أبوية "الأطفال يقبلون يد أبيهم و لا يحق لهم الكلام في حضرته". هذه ليست أسرة ديمقراطية يعبر فيها كل فرد عن نفسه، بل هي قائمة على مبدأ "نفذ ولا تفكر في الاعتراض". كثير من الأسر العربية المحافظة تشبه هذه العائلة فأين يكمن الفرق إذاً؟

باتريك سيل يلقي ضوءاً خافتاً على بعد آخر خفي في حياة آل الأسد : القوة و العنف. الجد الأكبر "المؤسس" سليمان الوحش صنع لنفسه إسماً لا بذكائه و لا بعلمه بل بقوته الجسدية و بقدرته على استعمال العنف غير المحدود ضد الآخر. عائلة الوحش التي ستصبح "الأسد" هي عائلة بَنَت سطوتها على العنف و القوة، ليس على الأخلاق ولا على الكرم أو الوطنية.

جاء حافظ إذاً من عائلة تعلي من شأن التعلم و الطاعة و تعتبر العنف و القوة وسائل طبيعية لتحقيق أهدافها. مسيرة الأسد المقبلة لن تخرج

عن هذا الإطار.
حين طالب أعضاء القيادة القطرية بمساءلة حافظ الأسد عن اتصالاته في لندن التي زارها للعلاج عام 1966 رد عليهم صلاح جديد حرفياً :
"لا نستطيع أن نطرح هكذا سؤال على الرفيق حافظ وزير الدفاع و قائد سلاح الجولأنه هددنا في حالة الشك بأقواله بقصف دمشق بالطائرات !". هذا المثال يوضح ما ذهبنا إليه بشأن التراث العائلي لآل الأسد : القوة هي القيمة العليا المؤسسة للعائلة الأسدية. حين الحاجة، لا حدود للعنف المطبق على القريب و البعيد. في هذا يختلف النظام الأسدي عن الأنظمة الفاشية التي تعتبر العنف جزءاً من السياسة ، فتستخدمه بمقدار ، و يقترب من الأنظمة الهتلرية و الستالينية التي تمارس العنف كسياسة قائمة بنفسها و لنفسها. الأسد الأب ثم الابن يبدوان أقرب "لبول بوت" منهم لكاسترو أو لفرانكو.
المثال الحموي في الثمانينات و ما يجري على يد الأسد الصغير اليوم لا يعدو كونه استمراراً لذات المبدأ : العنف بديلاً عن السياسة. هو عنف أعمى قبلي و أهوج، هذا عنف نرجسي و منحرف هدفه القضاء على الآخر لإدامة الذات و إعلاء شأنها. علم الجريمة وليس علم السياسة، قادر على إلقاء الضوء على هذه الظاهرة.
المثال الأقرب هو المجرم المغتَصِب، الذي يقتل ضحيته البريئة لا لسبب سوى لأنها رفضت الخضوع لنزوات و أهواء مغتصبها الذي يعتبر الآخر مجرد أداة لتسليته و لإرضاء نَزعاته السادية. أليس هذا ما يحصل حين يقتل زبانية الأسد المتظاهرين العزّل لمجرد الشك بوطنيتهم ولمجرد مطالبتهم بأبسط حقوقهم. أطفال درعا ، قبل حمزة الخطيب و باقي الشهداء، هم أنصع مثال على هذا العنف البربري النازي.
هل العنف وحده هو ما يفسر سياسة الأسد ؟ أم أن هناك و جهاً "عائلياً" آخر؟
حين كتب "علي الأسد" والد حافظ، رسالته إلى المندوب السامي الفرنسي عام 1936 مطالباً بإنشاء دولة علوية في سوريا ، خوفا من "الأكثرية السنية الظالمة" جاء فيها :
"هؤلاء السنة لا يخافون الله و لا يحترمون حق الآخرين في الوجود و الاختلاف. أنظروا إلى ما يفعلونه في أخوتنا اليهود في فلسطين، حيث يقاطعونهم و يرفضون التعامل معهم بل و يثورون ضد توافدهم على فلسطين هرباً من اضطهادهم في أوربا...".
في نفس الوقت كان علوي آخر، وطني، يكافح من أجل استقلال سوريا كلها و يرفض الاستقلال بدولة علوية عاصمتها اللاذقية، فهل كان "صالح العلي" خائناً لبني جلدته ، أعمى البصيرة و جاهلاً بنوايا "السنة العدوانية" ؟ أم أن "علي الأسد" كان كارهاً، ببساطة، للآخر السني الذي لم يؤذه بشيء ؟ بكلمة أخرى، هل كان علي الأسد "يُسقط" كراهيته الشخصية على الآخرين؟
الإسقاط هو ظاهرة نفسية يلقي فيها المرء بعيوبه و مخاوفه على الآخر، على مبدأ "رمتني بدائها و انسلّت". هذا يعني أن "علي الأسد" كان، في قرارة نفسه، يكره الآخرين و خاصة أهل السنة دون سبب وجيه و خَيّلت له نفسيته العدوانية أن "الآخرين هم من يكرهونه".
الإسقاط، مثل نفي الآخر و استسهال العنف، هي من سمات الشخصية المنحرفة، المعادية للمجتمع"السيكوباتية". هذا الإسقاط ذاته نجده حين يسم النظام الأسدي معارضيه بالخيانة و التآمر، في حين يرتع هذا النظام في ظل حماية "العدو الإسرائيلي" و يلقى الدعم من أعداء الشعب و كارهي الحرية.
حافظ الأسد نشأ إذاً في كنف أب يعتبر العرب المسلمين السنة "أعداء" و يعتبر اليهود "أخوة". فهل استمر الأسد الأب في طاعة أبيه كما تربى دوماً ؟ كيف وافق حافظ بين واجب الطاعة لأبيه الخائف من السنة والمطالب بدولة علوية وبين انتمائه السياسي لحزب قومي عروبي، رافض للعصبيات القبلية والدينية و يسمي نفسه "حزب البعث العربي الإشتراكي" ؟
هل مارس حافظ الأسد "التقية" و أعلن ما لا يضمر؟ هل جاهرصاحبنا بخطاب قومي و عروبي لإخفاء دوافعه الحقيقية وأفعاله الغير معلنة ؟ ماهي دوافع الأسد الكامنة و ما هو هدفه النهائي؟
هذا ما سنحاول رؤيته في المقالات المقبلة.
أحمد الشامي. نشرت في "حريات" جريدة اسبوعية في الداخل السوري العدد 16
http://www.syrian-hurriyat.com/issues/Hurriyat_issue16.pdf
سوريا : في الطريق إلى دولة العصابة 2-الصعود إلى النكسة :
بدأت حياة الأسد السياسية بانتسابه إلى حزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان يستقطب أبناء الأقليات مما أدى لاعتباره "حزباً علوياً " على حد وصف باتريك سيل كاتب السيرة الرسمية للأسد.
من المستبعد أن يكون انتماء الأسد الحزبي هذا قد تم دون موافقة ضمنية من والده، فالأسد لم يكن يفعل شيئاً دون استشارة هذا الأخير.
الأسد المراهق، مثل صدام حسين في نفس العمر، كان ذراعاً ضاربة للبعثيين لدرجة أثارت نقمة الأخوان المسلمين عليه. في عام 1948 تلقى الأسد طعنة في الظهر من قبل أحد المنتسبين للأخوان المسلمين بقصد قتله. يبدو أن للأسد من حينها ثأراً قديماً مع هذه الجماعة و حذراً مرضياً منها.
الأسد، ذو العشرين عاماً، كان ينوي دراسة الطب في الجامعة اليسوعية ببيروت لكن ضيق ذات يد والده، وربما تفضيل هذا الأخير لطفله الأصغر "رفعت" منعا حافظ من التوجه لبيروت بغرض تقديم طلب انتسابه لهذه الجامعة. لماذا الجامعة اليسوعية وليس جامعة دمشق الأقرب وطنياً ؟ هذا ما لا يجيب عليه باتريك سيل. على كل حال، هذه الحادثة ستخلف لدى الأسد حقداً على مهنة الطب سوف يتجلى بعد سنوات حين قام الأسد بتفكيك هياكل النقابات الطبية و فتح باب كلية الطب واسعاً أمام أعداد كبيرة من طلبة الريف للالتحاق بها، بل و إرسال بعثات

دراسية لكليات الطب في أوربا الشرقية ! مما نجم عنه زيادة هائلة في عدد الأطباء وتدهور الظروف المعيشية لهؤلاء بسبب أعدادهم الكبيرة، مما دفع الكثيرين منهم للهجرة.
حين قبل الأسد على مضض التوجه للكلية الحربية حيث "سيتلقى راتباً و يتخرج بدخل محترم" كان يفعل كالعشرات من أبناء الريف المحرومين الذين وجدوا في الجيش مجالاً للترقي و العيش الكريم. منذ الاحتلال الفرنسي، شجع المستعمر أبناء الأقليات والمحرومين على الالتحاق بالجيش حيث أبلى هؤلاء بلاء حسناً و اندمجوا في هياكل الجيش المحتل لدرجة أن حوالي ثلاثة آلاف من هؤلاء العسكريين اختاروا ترك بلدهم والرحيل مع الفرنسيين للاستمرار في خدمتهم في جبهات أخرى، في الجزائر و فييتنام.
حتى قيام الوحدة مع مصر، كان "الخط البياني للأسد و مستقبله في صعود " بحسب باتريك سيل. لكن، حين قام عبد الناصر بحل الأحزاب في سوريا و بمنع الضباط من الاشتغال بالسياسة، بدأت أحلام الأسد الوردية بالتبخر. عبد الناصر أراد وحدة عربية على مقاسه و بشرط أن يكون في موقع القيادة. الأسد الذي عايش انهيار آمال الوحدة و شاهد بأم عينه كيف انتهى الحلم الوحدوي إلى كابوس القمع والفشل، أدرك أن كل ما كان يتداوله مثقفو البعث عن الوحدة و العروبة ما هو إلا أضغاث أحلام لن تصمد أمام امتحان الواقع.
عقد حافظ العزم حينها على أن يتعلم من أخطاء عبد الناصر. أدرك صاحبنا أن "التشدق بالوحدة خير و أبقى من تحقيقها فعلاً" وأن بعض الأحلام من الأفضل لها أن تبقى أملاً صعب المنال من أن تتحقق على أرض الواقع. من حينها بدأ تعلق الأسد بالخطاب المزدوج و إتقانه " للعُهر اللغوي " على مبدأ "ليس مهما ما تفعله حقاً ، بل ما يظن الناس أنك تقوم بفعله " وهو من أهم مبادئ التحكم بالعقول و التلاعب بأذهان الناس.
حافظ تعلم شيئاً آخر من أخطاء عبد الناصر الذي ألغى الحياة السياسية في مصر و خاصة في الجيش. هذا الإلغاء لكل عمل سياسي علني، أفسح المجال أمام حافظ و شركائه للعمل في السر من أجل تشكيل "اللجنة العسكرية" وهي خلية تآمرية مكونة من خمسة شركاء، كلهم من أبناء الأقليات، ثلاثة منهم علويون واسماعيليان. العجيب أن الأسد العروبي القومي و العلماني، لم يجد سوى أبناء أقليات دينية لكي يشاركوه في أحلامه القومية و العروبية ثم في الوصول إلى السلطة والتشبث بها.
تجربة الأسد المؤلمة في مصر الناصرية دفعته لدراسة كيفية تسييس الجيش السوري المقبل إلى درجة يتحول معها من مؤسسة هدفها الدفاع عن الوطن إلى هيئة ايديولوجية غايتها حماية النظام السياسي وإدامة نمط معين من الحكم. عبد الناصر سار على نهج "محمد علي" و أراد تحقيق فصل تام بين الجيش المدافع عن الوطن و السياسة، فكانت النتيجة انهيار الوحدة و تآمر الضباط الانفصاليين عليه. الأسد تبنى مقاربة مختلفة وأراد بناء الجيش العقائدي على نمط مغاير تماماً للجيش الوطني، وهو ما نرى نتائجه اليوم، حين تتماهى ممارسات الجيش السوري العقائدي، جيش الأسد، مع ممارسات جيوش الاحتلال في أشكالها الأكثر دموية.
لم يأت الأسد فعلياً بجديد، فهو اكتفى بتقليد "ماو تسي تونغ" في السياسة التي اعتمدها للوصول إلى السلطة وللمحافظة عليها في الصين الشعبية، هذه السياسة التي انتهت إلى كارثة الثورة الثقافية في الستينات في الصين وإلى مذابح بول بوت في كمبوديا في أواخر السبعينات. هذه السياسة الكارثية ذاتها لا تزال متبعة في كوريا الشمالية و في كوبا.
فصل آخر من سياسة "ماو تسي تونغ " يبدو أنه أعجب الأسد المولع بقراءته ، وهي سياسة "النخر من الداخل" Entrisme : في هذه السياسة يقوم الثائر (أو المندس) بالالتحاق بخصومه السياسيين، متظاهراً بالوفاء لهم وبالإخلاص لعقيدتهم بل وبالتفاني في خدمة هذه العقيدة، مع محاولة تخريبها من الداخل. حين تدق ساعة العمل، يكشف الثائر (أو الخائن، سمّه ما شئت) عن وجهه الحقيقي و يوجه الضربة القاضية لعدوه.
حافظ الأسد كان قارئا نهماً ومحباً للعمل، جدياً و ملتزماً بنظام صارم في حياته المهنية و الشخصية، هذه الصفات التي أوصلته للنجاح حيث فشل آخرون، هي نفسها ما سوف يفتقده خليفته المقبل وهذا ما سيجعل "بشار الأسد" يستسهل السلطة والقيادة التي ورثها وهو ما سوف يكون سبب وقوعه في الخطأ تلو الآخر.
قدرات الأسد التنظيمية ، دقته ومهنيته ، ثقافته السياسية و " زهده " الظاهري في السلطة ، هذه كلها دفعت صلاح جديد لارتكاب خطأ قاتل ، حين كلف صلاح جديد زميله و بيت سره الأسد بإعداد الجيش السوري عقائدياً، بعدما أوكل إليه قيادة سلاح الجو السوري ووزارة الدفاع.
أصبح الطريق ممهداً أمام الأسد للقفز قريباً على السلطة. لكن الأسد الحذر فضل انتظار الظروف المناسبة لكي لا يكون مجرد ضابط جديد يستولي على السلطة في غفلة من زملائه، قبل أن يقوم آخرون من أمثاله بطرده منها.
في تلك الفترة، زار الأسد بريطانيا "بحجة المعالجة ". بإمكاننا أن نفترض أن وزير الدولة البريطاني الذي قابله أراد أن يعرف أي صنف من الرجال هو الأسد، هذا النجم الصاعد في سماء السياسة السورية المتقلبة. لا بد أن المقابلة قد أثلجت صدر الوزير البريطاني ، بدليل أن الغرب سوف يبارك صعود الأسد المقبل إلى سدة الحكم في دمشق وسيبقى متعلقاً به حتى بعد مماته.
مع ربيع العام 1967، الأسد قائد سلاح الجو السوري ووزير دفاع البعث، المنوط به حماية البلاد من العدو الصهيوني، كان مشغولاً بتحويل الجيش السوري إلى جيش عقائدي لحراسة نظام البعث الأقلوي في دمشق، ضد كل الأخطار سوى تلك القادمة من الجنوب، من كيان العدوان الصهيوني الذي بني الجيش السوري لمواجهته.
هل كان لدى الأسد المشغول بأعدائه الداخليين و منافسيه ما يكفي من الوقت ليدرك أن الكيان الصهيوني قد تجاوز مرحلة بناء الدولة ووصل إلى درجة من القوة تسمح له بفرض إرادته على محيطه ؟ رئيس وزراء إسرائيل حينها ، ليفي اشكول، وجد نفسه محاطاً بجنرالات من الصقور

على رأس جيش قوي و منظم. إسرائيل كانت قد أصبحت قوة إقليمية عظمى قادرة على الصمود أمام ضغوطات الدول الكبرى، مع مشروع نووي شبه مكتمل.
إسرائيل العالمة ببواطن الأمور في دمشق كانت تعرف كيف تستدرج هذا النظام المتهور و فاقد الكفاءة إلى حيث تريد و تشتهي، فأدخلته في مناوشات عسكرية خاسرة حين أصبح الوضع مؤاتياً لها. نظام البعث اليساري المتطرف في دمشق أطلق فوراً صرخات الاستغاثة باتجاه حليفه الناصري بعدما أذاع الروس أن إسرائيل تنوي مهاجمة سوريا. هكذا قام النظام الغوغائي في دمشق بما كان متوقعاً منه وهو توريط عبد الناصر في حرب لم يكن يريدها و سيخسرها.
الأسد الحصيف والحذر، العالم بميزان القوى وبأهمية سلاح الجو في أي معرك صرّح أنه : لم يكن يتوقع أن إسرائيل، التي ما فتئ جنوده يتحرشون بها في مناوشات عديمة الأهمية الإستراتيجية، قد تهاجم العرب ! هل كان الأسد عديم الكفاءة ، جاهلاً ، أم أنه كان يتجاهل ؟
في اعتقادنا أن الأسد كان متيقناً من أن إسرائيل سيكون لها قصب السبق في أي صراع مقبل مع العرب، لكنه ككل "زعيم عصابة مقبل" يحترم نفسه أراد أن يحجز لنفسه مكاناً في الانتصار الإسرائيلي المقبل عبر تسهيل هذا الانتصار ثم الانتظار و قطف المكاسب.
هكذا، أكّد الرفيق "حافظ الأسد " للقيادة البعثية أن الجيش السوري "جاهز لكل الاحتمالات و مستعد للذود عن الوطن " رغم علمه المسبق بضعف امكانات جيشه و بعدم جاهزيته لأي مهمة. شارك الأسد هكذا بشكل عملي في توريط عبد الناصر وأصدقائه البعثيين في حرب خاسرة سلفاً و دون أي هدف. في نفس الوقت ، كان ينسج شبكات الولاء التي سوف تتولى قطف ثمار الانتصار الإسرائيلي المقبل.
كيف سيحول الأسد الهزيمة النكراء التي يتوقعها إلى مجرد "نكسة " سوف تسهم في تعبيد طريقه إلى قمة السلطة في دمشق ؟
هذا ما سنحاول رؤيته في المقالات المقبلة.
أحمد الشامي. نشرت في حريات : | | العدد السابع عشر | الاثنين 12 كانون الاول 2011
http://www.elaphblog.com/shamblog
http://www.syrian-hurriyat.com/issues/Hurriyat_issue17.pdf
سوريا : في الطريق إلى دولة العصابة 3-الصفقة :

الكل يعتقد بأن حرب الأيام الستة كان فيها منتصر واحد وهو إسرائيل، و عرب كلهم مهزومون. علوم السياسة و الإستراتيجية متفقة على هذا الأمر، لكن لدينا رأي آخر استنادا إلى مقاربتنا لعبقرية حافظ الأسد الإجرامية.
صحيح أن الانتصار الإسرائيلي لا شك فيه، لكن بين العرب هناك من "انتصر" كفرد أو كنظام حكم.
إسرائيل هزمت العرب و ضاعفت مساحتها عدة مرات، مسحت مرارة انسحاب عام 1956 واحتلت كامل القدس إضافة إلى استيلائها دون جهد يذكر على سيناء و على الجولان المحصن وثرواته. إسرائيل كانت ستنتصر على أي حال، لكن مساهمة "المنتصرين" العرب في جهدها العسكري جعلت الانتصار سهلاً و بخس الثمن.
الملك الصغير، داهية العرب، الملك "الحسين بن طلال" نجح في إنقاذ نظامه الملكي في الأردن. قبل النكسة، كانت الضفة الغربية بكاملها تحت إدارة أردنية و كانت حواضر فلسطين العربية خاضعة للحكم الهاشمي في عمان. إرهاصات الثورة و التململ الفلسطيني كانت قد بدأت قبل حرب حزيران خاصة في صفوف اللاجئين من عام 1948. سقوط العرش الهاشمي كان قد أصبح مسألة وقت وكاد حاكم عمان يلحق بسلفيه الهاشميين الذين سقطا أولا في دمشق على يد الفرنسيين ثم في العراق على يد عبد الكريم قاسم.
الفلسطينيون المتحضرون، خاصة من أبناء المدن، صاروا يتذمرون من الحكم العشائري في عمان، اللاجئون الفاسطينيون أدركوا عجز العرب و الملك عن إعادتهم لبلادهم. أما أبناء القبائل الاردنيون فقد أصبحوا يشعرون بأنهم أقلية في بلدهم.
هذا ربما يفسر مسارعة الملك حسين للمشاركة في حرب كان يعلم أنها خاسرة سلفاً و لم يكن مضطراً للتورط بها. مشاركة الأردن في الحرب كانت في النهاية مصلحة إسرائيلية و لم تكن لتغير شيئاً في موازين القوى العسكرية. هذه المشاركة سمحت للملك الصغير بالتخلص من عبء القدس و الضفة الغربية بإلقائهما في حضن إسرائيل ! دخول الأردن الحرب رسمياً أضعف الدفاعات السورية في الجولان. "المشاركة" الأردنية في الحرب تسمح قانونياً لإسرائيل بالالتفاف على الحصون السورية في الجولان عبر الأراضي الأردنية و بمحاصرة الجيش السوري وسحقه هناك. خسر الأردن العربي الحرب كبلد و كدولة، لكن العرش الهاشمي كسب بقاءه.
"المنتصر" العربي الثاني، حافظ الأسد، ما كانت لتغيب عنه هكذا تفاصيل. الأسد كان يدرك أن إسرائيل ستنتصر مهما فعل العرب لأنها الأقوى عسكرياً وبمراحل، ليس فقط بفضل الدعم الأمريكي، لكن أيضاً بجهود الإسرائيليين الذاتية في ظل تقاعس عربي مزمن، فلماذا لا يحقق الأسد لشخصه مكسباً من النصر الإسرائيلي المتوقع ؟
الصورة لم تكن وردية تماماً على الجانب الإسرائيلي، فاليهود كانوا خائفين من رد فعل الاتحاد السوفيتي و متوجسين من تخاذل الأمريكيين عن نصرتهم إن هم احتاجوا للعون.
هنا لا بد من العودة إلى الوضع الذي كان قائما عشية التاسع من حزيران 1967 بعد تدمير سلاحي الجو المصري ثم السوري و احتلال الضفة الغربية و سيناء.
الأمريكيون، المتورطون حينها حتى الركب في حرب عصابات مكلفة في فيتنام، لم يكونوا راغبين في الانزلاق إلى مستنقع عسكري جديد في الشرق الأوسط. مع ذلك، كان التدخل، ولو غير المباشر، سيفرض نفسه عليهم إن اشتبكت إسرائيل في حرب ضروس قد تهدد وجودها، خاصة

إن كان أحد أطراف الصراع هو الاتحاد السوفيتي.
السوفييت كانت لديهم مشكلة أخرى، فهم من ورطوا حلفاءهم البعثيين السوريين في حرب خاسرة سلفاً و لديهم أزمة مصداقية تجاه حلفائهم منذ حادثة الصواريخ الكوبية في تشرين الأول من عام 1962، حين قام "كاسترو" بتحريض من "تشي غيفارا" بالتفاهم مع الاتحاد السوفييتي لنصب صواريخ نووية قبالة البر الأمريكي. الرئيس الأمريكي "جون كينيدي" حرك أسطوله لمنع سفن السوفييت من الوصول لكوبا. خروتشوف تراجع حينها و سحب صواريخه لتفادي حرب نووية. من يومها ساد اعتقاد لدى قادة الحزب الشيوعي السوفييتي أن خروتشوف "جبان و متخاذل في وجه العم سام".
أزمة مشابهة سوف تتكرر عام 1967 لكنها ستجد نهاية سعيدة بالنسبة للكبار بفضل حافظ الأسد.
بريجنيف، الذي خلف خروتشوف في قيادة الاتحاد السوفييتي قدم نفسه على أنه رجل صلب لا يتراجع، على عكس سلفه خروتشوف. حين أصبح وضع حلفائه البعثيين في دمشق مهدداً من قبل إسرائيل التي اجتاحت سيناء و الضفة الغربية وسحقت القوى الجوية العربية، أصدر بريجنيف الأوامر لأسطوله في المتوسط بالاستعداد لمهاجمة إسرائيل، بدءاً بميناء حيفا، دفاعاً عن نظام البعث في دمشق و لتخفيف الضغط عليه.
حينها بالضبط أصدر وزير دفاع البعث السوري، حافظ الأسد، بيانه الشهير حول سقوط الجولان قبل أن يدخله أي جندي إسرائيلي ! أحد الوزراء السوريين ممن كانوا في زيارة للمنطقة، سمع بسقوط القنيطرة وهو لم يزل داخلها ! حين اتصل الوزير بحافظ الأسد للاستفسار عن الأمر رد عليه الأخير بفظاظة "بأن لا يتدخل فيما لا يعنيه"!
هذا البلاغ "الخاطئ" كان ضربة العمر بالنسبة للأسد. بهذه المناورة وفر صاحبنا على السوفييت تدخلاً عسكرياً مكلفاً لم يكونوا راغبين به كثيراً ، أعطى هذا البيان المبرر لبريجنيف لكي يقول لرفاقه في اللجنة المركزية "أن الأمر قد انتهى وأن الجيش السوري قد انهار فلا معنى للتدخل من أجل معركة قد خسرها صاحبها سلفاً" خاصة أن إسرائيل لم تهاجم دمشق بعد سقوط الهضبة و اكتفت بثمرة الجولان الناضجة.
حين أتبع الأسد بيان السقوط بأمر "الانسحاب الكيفي" فهو "أهدى" عملياً الجولان لإسرائيل دون قتال، لو كان الجيش السوري قد حارب وتمسك بمواقعه المحصّنة، لكانت إسرائيل ستضطر للالتفاف عليها عن طريق شمال الأردن و تهديد دمشق وفي نفس الوقت ستحاصر القوات السورية المدافعة عن الجولان. هذا ما كان الأسد يرغب في تجنبه لأنه كان سيؤدي ربما إلى دخول السوفييت على الخط لحماية دمشق و نظام البعث فيها و قد يكون من "نتائجه الجانبية" تدمير الجيش السوري بشكل كامل، هذا الجيش الذي سيكون سنده المقبل في الوصول إلى السلطة.
كان في إمكان الأسد، نظرياً على الأقل، التمسك بالجولان و الدفاع عن الوطن ثم وضع السوفييت أمام مسؤولياتهم و دفعهم للتدخل لحماية النظام الذي كان ربما كان سيخرج من الأزمة سالماً غانماً. لكن الأسد لم يفعلها، فلماذا ؟
الأسد لم يفعل ذلك "لكي يوفر الجهد" على السوفييت، لكنه كان على ثقة أن التدخل السوفييتي لحماية النظام لن يكون مجانياً. السوفييت لن يتورطوا عسكرياً لحماية سوريا ثم يرحلون. لو أتى السوفييت فهم سوف يأتون ليبقوا و سيقومون بدعم "أخوته الأعداء" من يساريي النظام و سيعملون على تحويل سوريا إلى نظام شيوعي خاضع لموسكو بقيادة "صلاح جديد". قدوم السوفييت للمساعدة في الدفاع عن النظام كان سيعني أن أحلام الأسد في حكم سوريا لوحده سوف تتبخر، وكان سيضع إسرائيل وجها لوجه مع السوفييت وهو ما لم تكن تريده الدولة العبرية.
هكذا تلاقت أهداف الأسد ومصالح إسرائيل لأول مرة و سوف تستمر في الالتقاء مرات و مرات في المستقبل.
بضربة معلم، أرضى الأسد كل اللاعبين الكبار في المنطقة. أمام رفاقه البعثيين، أوضح لهم أنه بإعلانه سقوط الجولان أنقذ النظام من سقوط محقق لأن الجيش السوري الذي فقد الغطاء الجوي كان سيتم سحقه و لن يبقى أحد ليحمي نظام البعث في دمشق خاصة أن االدعم الروسي لم يكن مضموناً ونتيجته غير مؤكدة. الروس لم يحتاجوا للتدخل عسكرياً و حافظوا على ماء وجههم إضافة إلى أن النظام الذي كانوا سيحمونه قد نجا من الأزمة "بفضل حنكة وزير دفاع هذا النظام".
الأمريكيون شاهدوا بعين الرضى انتصار ربيبتهم إسرائيل السهل و رخيص الثمن، دون أن يضطروا لمساعدتها. أخيراً إسرائيل نالت كل ما تبتغي و أكثر، بل لعل الأسد سوف يكون رجلها المقبل في دمشق.
هكذا كسب الأسد رضا اللاعبين الكبار، إقليمياً و دولياً، وهم الذين ضمنوا له حكم سوريا مستقبلاً، له ولذريته من بعده، دون منازع.
لكن الأسد الصبور و الذكي كان يطمع لأكثر من مجرد القفز على السلطة فوراً، الأسد كان يريد أكثر من ذلك بكثير.
ماذا كان يريد الأسد و ماهي خطواته المقبلة ؟
هذا ما سنحاول رؤيته في المقالات المقبلة.
أحمد الشامي. نشرت في حريات : | | العدد 18 |الاثنين 19 كانون الاول 2011 http://www.elaphblog.com/shamblog http://www.syrian-hurriyat.com/issues/Hurriyat_issue18.pdf

سوريا : في الطريق إلى دولة العصابة 4: الأخوة الأعداء

نستمر في متابعتنا لمسيرة "حافظ الأسد" و محاولة فهم كيفية وصوله إلى السلطة واحتفاظه هو ثم ذريته بها. نريد تفسير كيف قام الأسد

بانتقاء أزلامه و بالتحالف تدريجياً مع شرائح واسعة من المجتمع، ثم تغيير تحالفاته حسب اللزوم. نذكر القارئ الكريم بأننا نقوم بهذه المحاولة التحليلية اهتداء بعلم النفس الاجتماعي و خاصة علم النفس الإجرامي وأن هذه السلسلة لا تدعي تفسير كل سلوكيات الأسد ولا تدرس بنية النظام الاجتماعية أو السياسية، وهي علوم لا ندعي إتقانها.

رداً على استفسارات القراء أود أن أنوه أننا ندرس شخصية و سلوك الأسد بنفس الطريقة التي نحلل بها ظاهرة إجرامية و طرائق عمل جماعات الجريمة المنظمة، هذا يفسر اعتمادنا على دراسة الوقائع و فهم الدوافع بشكل مجرد في غياب أي جهد توثيقي أكاديمي محايد لمرحلة الحكم الأسدي.

دولة الأسد في رأينا هي الشكل الأرقى لدولة العصابة المافيوية : Thug State » « . هذا يفسر غياب الدراسات الموضوعية المستقلة لممارسات الأسد، عدا بعض جهود مشكورة قام بها أحرار معارضون، دفع أكثرهم ثمناً لها من حياتهم، من بينهم الشهداء سمير قصير، جبران تويني وسليم اللوزي وغيرهم. آخرون دفعوا الثمن من حريتهم لمجرد التطرق لمحاولة فهم طرائق عمل النظام و يعيش أكثرهم مختفين أو لاجئين. كاتب هذه السطور يحاول بجهده المتواضع تبسيط مفاهيم علم الجريمة المنظمة وإعطاء أمثلة عملية عن كيفية تشكيل الدولة الأسدية، تماماً كما تتشكل عصابات المافيا و لكن بحجم دولة كاملة، مع شعب يرزح تحت حكم عصابة من القتلة.

عودة إلى حزيران ١٩٦٧ وبعدما انجلى غبار "المعارك " عن هزيمة ساحقة لثلاثة جيوش عربية نظامية تفتقت عقلية حكام سوريا البعثيين عن نظرية "المجتمع المقاوم" و أن الاشتراكية العلمية هي وحدها السبيل لتجاوز الضعف العربي المزمن و الانقسام بين شعوب الضاد.

في هذه الظروف وجد الأسد من مصلحته تعميق تحالفه المرحلي والمصلحي مع زملائه من الجناح البعثي اليساري. كان حافظ يهدف لتجاوز حقيقة أنه كان وزير دفاع الهزيمة و أنه المسؤول الأول عن "البهدلة" التي لحقت بجيشه، الأسد كان يريد إلصاق مرارة الهزيمة بالنظام ككل لا بشخصه. في تلك الظروف وجد الجميع أن مصلحتهم تقضي بالتكاتف معا و باجتراح بدعة "أن هدف إسرائيل كان إسقاط نظام البعث السوري و ما دام النظام لم يسقط فإن إسرائيل قد خسرت المعركة !"

وحده وزير الصحة حينها "عبد الرحمن الأكتع " استقال بعدما ضربه حافظ الأسد رداً على سؤال حول بيان سقوط الجولان. الباقون أدركوا أن مصيرهم واحد و أن اختلافهم سيفسح مجالاً للشعب للتخلص منهم جميعاً. "زواج المتعة " هذا سيدوم حتى انقلاب الأسد النهائي على أصدقائه عام ١٩٧٠.

حافظ من جهته وبعدما اطمأن إلى رضى السادة الجدد للمنطقة عن سلوكه، عرف أن حكم سوريا سيؤول له حتماً فلماذا الاستعجال و حرق المراحل ؟ بعد أن ألقى عبء الهزيمة على كاهل رئيس الأركان "السويداني" استغل الفرصة لوضع صديقه وبيت سره مصطفى طلاس في رئاسة الأركان. هكذا ضمن الأسد سيطرته على الجيش بشكل كامل، خاصة بعدما طبق ما وصفه فيما بعد طلاس نفسه بسياسة "الأرضي شوكي" أي التخلص تدريجياً من كل ضابط يدين بالولاء لغير الأسد، بما فيهم شقيق "صلاح جديد" عزت ووضع أتباعه في مواقع القيادة و في المراكز الحساسة.

تدريجياً قام الأسد "بتنقية" الجيش من كل العناصر المشكوك بولائها له، في نفس الوقت استمر في تأطير القوات المسلحة حزبياً بهدف الوصول إلى الجيش العقائدي وهي المهمة التي سبق وكلفه بها "صلاح جديد" الغافل عن نوايا الأسد الحقيقية.

"صلاح جديد" كان رجلاً طوباوياً وساذجاً نوعاً ما، كان مؤمناً بالاشتراكية العلمية و صديقاً للاتحاد السوفيتي، بكلمة أخرى كان رجل السوفيت في سوريا. لنتذكر أن اتفاقات يالطا التي رسمت حدود المنتصرين في الحرب العالمية الثانية لم تكن تسمح للسوفيت بوضع اليد بشكل مباشر على أي من بلدان الشرق الأوسط، وهو ما كان قد منع الشيوعيين السوريين من القفز على السلطة. من جهة أخرى، لا شيء يمنع قيام نظام صديق للسوفييت لكن غير شيوعي في سوريا.

هذا ما يفسر تردد السوفيت في دعم نظام "صلاح جديد" والدخول على الخط السوري بقوة وبشكل مباشر وهو ما فهمه حافظ الأسد الذي أدرك أن هناك مجموعة مصالح سوفيتية، اقتصادية، عسكرية و سياسية تتعلق بموقف الاتحاد السوفيتي في الحرب الباردة، وفهم أن لا أمريكا ولا السوفييت لهم الحق في السيطرة بشكل مطلق على سوريا وهو ما كان سيعد إخلالاً بموازين القوى بين العملاقين. لو كانت إسرائيل اجتاحت سوريا في عام ١٩٦٧ لكانت ربما فرضت على السوفيت التدخل لفرض احترام اتفاقية "يالطا" كائنا من كان الحاكم في دمشق.

هذا يعني أن على من يحكم سوريا أن يحترم هذه التوازنات فيكون صديقاً للسوفيت دون أن يكون عدواً لدوداً لأمريكا، أو العكس، و يعني، أيضاً، أن من يتوصل لحكم الشام دون الاستعانة مباشرة بأطراف خارجية، سيتمكن من الاحتفاظ بالسلطة بل و "سيكسب من الطرفين ما دام يلعب في المنطقة الرمادية دون أن ينحاز مباشرة لأي من الطرفين ". هذا ما جاء على لسان رفعت الأسد عام ١٩٧٥ أثناء استقباله لزائري مواقع سرايا الدفاع قرب دمشق و كنت يومها بينهم.

من المحتمل أن يكون حافظ الأسد قد وظّف فترة " المساكنة " هذه مع إخوته الأعداء لفتح قنوات اتصال مع "الأطراف المعنية" خاصة مع الروس لطمأنتهم على مصالحهم. لا نعرف إن كان له في تلك الفترة صلات مباشرة مع إسرائيل، فصلاته المثبتة لدينا مع الدولة العبرية جرت في فترة التسعينات. أيضاً لا نعرف إن كان هو المخطط الوحيد و المنفذ لمخططاته ، أو إن كان هناك "ملاك حارس" سري من جهة دولية أو إقليمية يسدد خطاه. الأكيد أن صعوده إلى سدة السلطة في دمشق كان شيئاً مرغوباً لدى الأطراف المعنية دون استثناء، خاصة بعدما أبدى موهبة استثنائية في "إنهاء" أزمة حرب الأيام الستة، بشكل أرضى كل الأقوياء، على حساب أرض وكرامة سوريا، وهو ما سبق و فصلناه في مقالة سابقة (الصفقة).

الأسد بعمله هذا كان يحترم على طريقته تفاهماته مع "صلاح جديد" الذي كان مسؤولاً عن تأطير المجتمع المدني و تسخيره لصالح الحزب القائد، في حين كان الأسد موكلاً بتحويل الجيش السوري إلى جيش عقائدي ستوكل له مهمة حماية النظام، وهو ما سيقوم به على أكمل وأبشع وجه حين سيحمي الجيش النظام ولكن نظام الأسد لا نظام الحزب.

الأسد في كل سلوكياته اعتمد مبدأ " بسمارك " : "القوة تعلو على الحق ". الأسد اعتمد أولاً على امتلاك ناصية القوة ، تماماً كما كان يفعل هو سابقاً حين كان مراهقاً، وكما فعلت عائلته من قبل حين كان الإقطاعيون يوظفون أفراد عائلة "الوحش" من ذوي القوة الجسدية "لتأديب" الفلاحين ممن يشقون عصا الطاعة. كان بإمكان صلاح جديد وأعوانه أن يفعلوا ما يشاؤون مادامت القوة الضاربة بيد الأسد وحده عملياً منذ أن أوصل حليفه "مصطفى طلاس" إلى رئاسة الأركان بعد هزيمة ١٩٦٧.

الأسد نظر بعين الرضا إلى إصلاحات زملائه الزراعية وإلى النزاعات التي نتجت عنها، والتي لن يصيبه رذاذها. هذه الإصلاحات أغضبت ملاك الأراضي و أرضت القاعدة الاجتماعية الفلاحية التي ستكون الأساس لحكم الأسد المقبل. تقارب يساريي الحزب العلني مع الاتحاد السوفيتي أغضب الأمريكيين و صب في النهاية لصالح تقوية موقع الأسد كرجل متزن يقف في الوسط بين العملاقين.

الأهم من ذلك كله كان عملية تأطير الشعب السوري ضمن منظمات شعبية ملحقة بحزب البعث، من منظمات طلابية، نسائية، اتحادات عمالية و فلاحية و شبابية الخ. الأسد سوف يستمر في الاعتماد على هذه الكوادر و المنظمات و سيجعل منها أحد دعائم حكمه الشمولي المقبل ، مقتدياً بمثله الأعلى الكوري "كيم ايل سونغ". الأسد سيذهب في تقليد مثله الكوري إلى حد لم يسبقه إليه أحد في العالم العربي وهو تشكيل "طلائع الأسد" ذلك المشروع الإجرامي في حق طفولة ملايين السوريين الذين ستفرض عليهم "عبادة الأسد".

حتى ربيع عام ١٩٦٩ اختار الأسد التزام الحذر والحيطة القصوى لعدة أسباب، صحيح أنه بعد قتل سليم حاطوم و إقصاء آخرين، ثم تحييد أعدائه في المؤسسة العسكرية كان قادراً على تسلم السلطة في أي لحظة وسط مباركة دولية وإقليمية، لكنه كان يرسم الخطط ليس فقط للوصول إلى السلطة بسلاسة ولكن للاحتفاظ بها له و ربما لذريته من بعده و لممارسة سلطة مطلقة دون شريك أو مساءلة.

في هذه الفترة قام الأسد ببناء ذراعين ضاربتين تتبعان له شخصياً بشكل حصري و مباشر، هما "سرايا الدفاع" بأمرة أخيه "رفعت الأسد" و جهاز "مخابرات القوى الجوية ". الأسد أصبح له جيشه و جهاز مخابراته الخاصّين، أصبحت له دولة داخل الدولة. ما عاد ممكناً أن يغدر به أي من "أخوته".

في أوائل عام ١٩٦٩ بقي حاجز أخير أمام تكريس الأسد زعيماً مطلقاً لسوريا. هذا الحاجز كان اسمه عبد الكريم الجندي...

أحمد الشامي http://www.elaphblog.com/shamblog

نشرت في حريات : | | العدد 20 |الاثنين 2 كانون الثاني 2012

http://www.syrian-hurriyat.com/issues/Hurriyat_issue20.pdf

سوريا، في الطريق إلى دولة العصابة

5 : شريعة القتل

كيف تفعل عصابات المافيا حين تريد وضع يدها على منطقة ما ؟ علم الجريمة يعلّمنا أن زعيم العصابة يبدأ بتأسيس رأس جسر ثم بتجنيد الأتباع ممن يثق بهم، خاصة من أفراد عائلته و جماعته. بعدها يبدأ في زرع أعوانه في المراكز الحساسة و في جمع المعلومات عن كل من يمكن له أن يكون منافساً أو أن يعترض طريقه و يعرقل أعماله.

هذه هي المرحلة الأكثر دقة في تطور المافيات، حيث تقل فرص النجاح أو تنعدم حين يصطدم المجرم بمنافسين أقوياء أو حين تعترض طريقه أجهزة أمن نزيهة. المنافسون يتم حل المشكلة معهم إما بدمجهم في البنية المافيوية الجديدة، أو يتم التخلص منهم ولو بتصفيتهم جسدياً إن هم عاندوا. أجهزة الأمن يتم شراء رؤسائها بالمال أو بتوريطهم في قضايا أخلاقية و تشويه سمعتهم لكي "يتعاونوا". إن بقي هؤلاء مصرين على "ركوب رأسهم" يقوم المجرم بتصفيتهم هم أيضاً بطريقة لا تثير الشبهات حوله والأفضل هو "انتحارهم".

علم الجريمة يعلمنا أيضاً أن الجريمة الكاملة هي جريمة "تبدو" و "كأن" فاعلها معروف و دوافعها مفهومة. ستالين و هتلر ومثلهم كثر وجدوا في "انتحار" خصومهم حلاً لمشاكلهم. ستالين كان يقول : "فلان مشكلة ، لا مشكلة...". هذا الأسلوب كان غريباً عن الممارسات السياسية التي عرفتها المنطقة قبل حافظ الأسد الذي أقام مافيا بحجم دولة، مافيا مبنية على تبادل المصالح اللامشروعة، تشريع القتل و تقنين النهب.

بعدما تمكن حافظ الأسد من عزل اللواء "عزت جديد " قائد اللواء 70 و التخلص منه "بالذوق" لم يبق قادراً على اعتراض، أو تعقيد، وصوله إلى السلطة سوى رئيس مكتب الأمن القومي والمسؤول عن أجهزة أمن ومخابرات البعث اليساري، العقيد "عبد الكريم الجندي ". الطريقة التي سيتخلص بها الأسد من هذا المنافس المشاغب ستتكرر على مدى أربعين عاماً مع بعض التنويع في التفاصيل. طريقة التنفيذ تحمل بصمات الأسد تماماً كالمجرم السيكوباتي (pervers) الذي يعتمد نفس الطريقة في ارتكاب جرائمه كل مرة. أسلوب الأسد في التخلص من خصومه يطابق ممارسات المافيات العريقة.

من الممكن أن يكون العقيد الجندي قد تمكن، متأخراً، من فهم استراتيجية الأسد ومعرفة طموحات هذا الأخير وخطورتها على نظام "صلاح جديد" بل وعلى البلد، مما يجعل فرضية أن "عبد الكريم الجندي" أراد التخطيط لاغتيال "حافظ الأسد" منطقية. على كل حال، فالعقيد

"الجندي" فشل في محاولته الحصول على الدعم من قبل جماعة "جديد" و"انتهى به الأمر إلى الانتحار بعدما رفض صلاح جديد فتح جبهة ضد حافظ الأسد" على حد زعم "باتريك سيل". يتابع "سيل": حين ذهب "الجندي" إلى "صلاح جديد" ومعه الأدلة على "تورط الرفيق حافظ في ممارسات غير ثورية" رفض هذا الأخير الإصغاء إليه و وضع حد لسلوك الأسد "المغاير لأهداف الثورة".
لماذا تعامى "صلاح جديد" عن الوقائع و احتفظ بوزير دفاع النكسة الخائب؟
التفسير الأول لتخاذل "جديد" هو أن الرجل ساذج و مغفل لم يفهم أن الأسد يعد العدة لكي "يتغدى به". هذا الاحتمال ضعيف لأن "صلاح جديد" مثله مثل حافظ، متآمر من الطراز الأول و سبق له وأن خان زملاءه فليس معقولاً أن لا ينتبه لدلالات سلوك الأسد. الإحتمال الثاني هو أن "صلاح جديد" كان موافقاً ضمناً على كل ما كان يفعله الأسد من تركيز للسلطة في يده و من بناء الجيش على أساس طائفي و على ولاءات فئوية تحت اسم الجيش العقائدي المنوط به الدفاع عن النظام. هذا يعني أن "صلاح جديد" فسر سلوك العقيد "الجندي" على أنه احتجاج طائفي "اسماعيلي" على تمركز السلطة في أيد علوية بحتة. لنتذكر أن والد "صلاح جديد" كان من بين الموقعين على ذات الرسالة المطالبة بإنشاء دولة علوية، خوفاً من "تسلط السنة المتعصبين، أعداء الأقليات بما فيها اليهود" مثله مثل رأس عائلة "الوحش" حينها، جد زميله ووزير دفاعه "حافظ الأسد".
في اعتقادنا أن "صلاح جديد" كان موافقاً عموماً على التوجه الطائفي للأسد، لكنه لم يتوقع أن يكون الأسد ملتزماً بمستقبله الشخصي أكثر من التزامه تجاه طائفته وتجاه نظام البعث.
رواية العماد مصطفى طلاس عن كيفية "تحييد" العقيد الجندي تستأهل الدراسة لكونها تتوافق مع طروحاتنا حول الأسلوب الإجرامي المحض الذي اتبعه الأسد قبل وبعد وصوله إلى السلطة. يقول طلاس: بعد أن فشل العقيد "الجندي" في مسعاه للحصول على الدعم من قبل القيادة، تحصن في مكتبه بحي الروضة. حينها قام "رفعت الأسد" باصطياد سائقي سياراته واحداً تلو الآخر، حين يجيئون لتعبئة سياراتهم بالبنزين في كازية هيئة الأركان. تماماً كما تفعل العصابات حين تصطاد المنافسين ثم تجندهم أو تتخلص منهم. بعدها حاصر "رفعت الأسد" مكتب الأمن القومي في الروضة. لنلاحظ أن شقيق وزير دفاع الدولة، قائد "ميليشيا" مسلحة، يحاصر مكتب رئيس المخابرات ! أي دولة قانون هذه ؟ في النهاية، يطلب "باتريك سيل" من القارئ أن يصدق أن "عبد الكريم الجندي" الرجل النزق و المتهور انتحر لمجرد أن زعران رفعت الأسد حاصروا مكتبه ! بل أنه وجد الوقت والقدرة على كتابة رسالة انتحار مفصلة ! علماً أنه من النادر أن يترك المنتحرون وراءهم رسائل. على كل حال فقد "صادف" أن الطبيب الإيطالي الذي عاين الجثة عاد إلى بلده في الساعات التي تلت إعلان وفاة العقيد "الجندي"....
قبل وبعد انتحار العقيد، سرت بحقه كل الشائعات الممكنة، من اتهامه بالعجز الجنسي، إلى تأكيد أنه فاسد وعقيم، حتى زوجته "انتحرت" هي الأخرى فيما بعد "لكن حزناً على زوجها ". ربما وفق المبدأ الأساسي لكل قاتل "لا تترك وراءك أي شهود". هل "انتحر" العقيد أم أن حافظ الأسد "انتحره" كما سينتحر من بعده الزعبي ثم غازي كنعان ؟ هذا ما لا نستطيع تأكيده لكن لنلاحظ أن أياً من الساسة العرب لم ينتحر باستثناء عبد الحكيم عامر بعد هزيمة حزيران. وحدهم خصوم الأسد السياسيون ينتحرون في أنسب الظروف للأسد !
الأسد لن يتوانى يوما عن اغتيال أي خصم سياسي محتمل حتى في المنفى، "محمد عمران" و "صلاح البيطار" وغيرهم كثر من الضحايا هم من سيعبدون طريق الأسد إلى السلطة.
غياب "عبد الكريم الجندي " عن الساحة ترك الباب مفتوحاً أمام الأسد للوصول إلى السلطة بسلاسة. يروي زائرو "نور الدين الأتاسي" رئيس الدولة حينها أنه كان يرسل ضيوفه الرسميين لمقابلة "حافظ الأسد" في وزارة الدفاع "لأنه من بيده الأمر". و نقل عنه أنه قال حين وصله خبر وفاة "عبد الكريم الجندي" : "اليوم تيتمنا". وصول الأسد إلى الرئاسة كان قد أصبح محسوماً، لم يفتح أحد أي تحقيق في موت رجل الأمن القوي حينها. دولة حافظ الأسد كانت قد ولدت و لا أحد كان يجرؤ حتى على السؤال.
وصول الأسد إلى السلطة يختلف عن كل ما عرفته سوريا من انقلابات عسكرية قبله ولا يشبهه سوى صعود "صدام حسين" بعد ذلك إلى سدة الحكم في العراق بعد إبعاد نسيبه و عرابه "محمد حسن البكر". قبل الأسد، ستالين ثم هتلر كانوا قد اتبعوا نفس الطرق القائمة على القتل و تصفية المزعجين. نظام الأسد له إذاً جذور مشتركة مع أشنع الأنظمة القمعية التي عرفتها الإنسانية. أي من هذه الأنظمة لم يزل دون التسبب بملايين الضحايا، حرب باردة و حروب ساخنة لا تعد كانت ضرورية للخلاص من الستالينية. التخلص من "هتلر" كلف البشرية أربعين مليون ضحية وآلاماً لا تنتهي. هذا برسم من يعتقد أن نظام الأسد قابل للإصلاح وأن التفاوض معه قد يؤدي إلى نتيجة.
مهارة الأسد و حذقه يكمنان في مزاوجته لعدة استراتيجيات في الوصول إلى السلطة والاحتفاظ بها فيما بعد و هو ماسيطبع نظامه إلى اليوم.
الأسد تمكن من الموافقة بين استراتيجيات سياسية - مافيوية و حتى عسكرية في انسجام ملفت. سياسياً، عانق الأسد الخطاب الشعبوي و العقائدي لأخوته في الحزب، متبنياً خطابهم المتخشب ومعتمداً على الحزب و منظماته الشعبية في السيطرة على البلاد، بعد تفريغ الحزب من كل محتوى فكري. في نفس الوقت، تصرف كزعيم عصابة لا يرحم، مراكماً الأتباع الذين اشترى ولاءهم بالمناصب وبالمحسوبيات، تخلص من خصومه جسدياً بعدما شوه سمعتهم وقام بنفي آخرين، بعدما جردهم من كل سلطة و هيبة.
استراتيجية الأسد العسكرية في الوصول إلى السلطة تستحق الدراسة. الرجل اعتمد طرائق أقرب إلى الغزو منها إلى القفز على السلطة.
عادة كان العسكريون يقومون بتحريك قطعاتهم إلى العاصمة ليحاصروها، ثم يحتلون مبنى الإذاعة والتلفزيون لإصدار "البلاغ رقم واحد" قبل لملمة أزلام النظام البائد و سجنهم.
الأسد من جهته بدأ بالسيطرة على رأس جسر في السلطة، هو وزارة الدفاع التي جعل منها دولته الخاصة، دولة داخل الدولة، لها جيشها

وجهاز استخباراتها و ميزانيتها الخاصة. من هنا تأتي أهمية "النكسة" عام 1967 و الخوف من الغزو الإسرائيلي اللذان كانت نتيجتهما زيادة ميزانية وزارة الدفاع بشكل سرطاني. الأسد وظف هذه الموارد كلها في خدمة مشروع وصوله للسلطة وليس في خدمة الدفاع عن الوطن. بعد تثبيت مواقعه في وزارة الدفاع، انتقل الأسد إلى توسيع رأس الجسر هذا و الامتداد أفقياً و عمودياً على مساحة القطر السوري، والاتصال بكل فئات وطبقات الشعب السوري، خاصة منها المتضررة من تهور وسياسات أخوته من يساريي البعث بهدف ضمان ولاء الجميع له.

أسلوب الأسد مشابه لما اتبعته الوكالة اليهودية في سطوها على فلسطين، حيث بدأت بزرع رؤوس جسر من المستوطنين، ثم قامت بتشكيل جيشها الخاص "الهاجانا" و أجهزة مخابراتها في ظل صمت و تواطؤ البريطانيين. تدريجيا قام الصهاينة بالتخلص من خصومهم و بزرع الفتنة بين أعدائهم و حين أتت الفرصة كان كل شيء جاهزاً لاغتصاب الأرض العربية في غفلة عن أصحاب الحقوق.

في رأينا أن الأسد كان قادراً على الوصول للسلطة منذ عام 1966، لكنه انتظر نضوج الوضع لكي لا يفقد السلطة بنفس السرعة التي اغتصبها بها. الأسد لم يرد أن يكتفي باغتصاب السلطة في سوريا، الأسد كان يريد اغتصاب القطر السوري كله.

أحمد الشامي. http://www.elaphblog.com/shamblog

نشرت في العدد الواحد وعشرون من جريدة حريات - الإثنين 09 كانون الثاني 2012

http://www.syrian-hurriyat.com/issues/Hurriyat_issue21.pdf

دولة العصابة 6 : بناء الأسطورة

بعد التخلص من كل من لديه قدرة على إعاقة وصوله للسلطة، قبع حافظ منتظراً الفرصة المناسبة للقفز على السلطة وهي ستأتيه عام 1970 بعد أن قرر "زملاؤه" التدخل في الأردن لمساعدة الفدائيين الفلسطينيين ضد قوات الملك حسين. كان بمقدور الأسد وزير الدفاع أن يرفض تحريك القوات السورية و لكنه وافق بعد "أن نأى بنفسه عن هذا القرار..." . الأسد استمر في لعبته المزدوجة حتى النهاية، فقد قبل بإرسال الجيش لكن دون توريط قطعات كافية في المعركة و دون استراتيجية عسكرية واضحة.

بالنسبة للملحق العسكري الباكستاني في عمان، والذي سيصبح رئيساً لباكستان، الجنرال "ضياء الحق"، سحق الهجوم السوري كان أشبه بلعبة أطفال. الرجل عسكري محترف و يتقن مهنته، ليس كالهواة في دمشق بمن فيهم وزير الدفاع الذي يتقن التآمر ولكنه لا يفقه شيئاً في الشؤون العسكرية.

حين عهد الملك "حسين" للجنرال "ضياء الحق" بقيادة الدفاعات الأردنية ضد القوات السورية الغازية، وضع تحت تصرفه بين ما وضع السلاح الجوي الأردني الضعيف، مع إمكانية الاستعانة بالصديق الإسرائيلي أو بالحليف الأمريكي إن لزم الأمر. لكن الرجل اكتفى بنصب كمين بسيط، وقعت فيه القوات السورية بغباء و تم "تحييدها". عادت القوات السورية تجر أذيال الخيبة بعدما أرسلها الأسد إلى التهلكة دون عتاد كاف ودون غطاء جوي.

حافظ الأسد أدرك مبكراً أن المقاومة الفلسطينية المسلحة قادرة على إزعاج إسرائيل ولكنها عاجزة عن حسم الصراع. قبل كل شئ كان الأسد يخشى من وجود عناصر مسلحة لا تأتمر مباشرة بأمره و قد تختار الوقوف إلى جانب خصومه من البعث اليساري في ساعة الحشرة.

الأسد نظر بعين الرضى إلى سحق المقاومة الفلسطينية من قبل صديقه الملك حسين، وأدرك أن عليه التحرك بعدها سريعاً قبل أن يلملم الفلسطينيون صفوفهم ويعيدوا تشكيل قوة ضاربة، لكن على الأرض السورية هذه المرة. أصدقاؤه البعثيون وجدوا في المقاومة الفلسطينية حليفاً قد يساعدهم على الضغط على إسرائيل ويساهم في تحرير الجولان ويمكن له أن يحميهم من بطش الأسد. هذا ما لم يكن حافظ يريده، وهو ما دفعه للإسراع في القفز على السلطة.

حين حزم "صلاح جديد" أمره و طرد "حافظ الأسد" من حزب البعث، أعطى الضوء الأخضر للأسد كي يحسم الأمر وكانت الحركة التصحيحية، انقلاب قصر أبيض دون ضجيج أو أدنى مقاومة.

الأسد الذي كان قد اعتاد على ممارسة سلطة مطلقة من وراء الستار دون أن يتحمل وزر قراراته، وجد نفسه فجأة تحت الأضواء التي لن يتركها حتى وفاته. أصبح الأسد "يلعب على المكشوف" وصار عليه أن يطور سياساته الخاصة، داخلياً و خارجياً.

داخلياً اكتفى الأسد ب"تصحيح" قرارات اتخذها زملاؤه بموافقته، دون أن يلغيها! بدأ الأسد في تطبيق سياسة تهدف إلى جعل شخصه مركز الثقل الوحيد ومحور الحياة في الدولة السورية. ككل نرجسي منحرف، كانت كل مشكلة تعترض الأسد أو الدولة السورية، مناسبة لاجتراح حلول تعتمد حصراً على شخص الرئيس أو قراراته و "مكرماته".

مثلاً، الأسد أوقف مصادرة أراضي الملاكين، لكن بعدما كانت هذه السياسة قد استنفذت أهدافها. في مسألة السكن و لحل مشكلة نقص المساكن، قرر الأسد منع إخلاء المستأجرين بدل تحريك عجلة البناء والاستثمار السكني. بهذه الطريقة ضمن الأسد ولاء المستأجرين، وهم كثر ويشكلون قاعدته السياسية، دون أن يحل أزمة السكن، وهكذا دواليك.

خارجياً، أدرك الأسد حدود لعبة القوى العظمى ومدى استقلالية القرار الإسرائيلي عن القرار الأمريكي. حافظ الأسد فهم سريعاً أن إسرائيل لا تريد لا السلام ولا الاندماج في المنطقة. كان واضحاً للأسد أن استقراره في السلطة رهن بالقرار الإسرائيلي وبقدرته على الانسجام مع المشروع الإسرائيلي في المنطقة.

إسرائيل تريد أن تبقى جزيرة من الاستقرار و الرخاء، معزولة عن محيطها، بشكل يحافظ على نقاء العنصر اليهودي و تماسكه، دون أن تتعرض لمضايقات ودون أن تدفع ثمن احتلالها للأراضي العربية. هذه الأهداف لا تتعارض أبداً مع مصالح الأسد الضيقة.
الحقيقة أن العلاقات السورية – الإسرائيلية لم تبدأ مع الأسد بل قبله بكثير، أول من راسل الإسرائيليين عارضاً خدماته كان حسني الزعيم.
لم يصدق "دافيد بن غوريون" عينيه حين وصلته رسالة من "حسني الزعيم" الذي كان قد وصل بعد أول انقلاب عسكري في العالم العربي إلى سدة السلطة في دمشق. "الزعيم" عرض في ربيع عام 1949 على أول رئيس وزراء لإسرائيل "تفاهماً" بين الدولة السورية بقيادته و بين دولة إسرائيل يتقاسم الاثنان بمقتضاه السلطة و النفوذ في كل منطقة الشرق الأوسط. عرضَ "حسني الزعيم" بين ما عرض، توطين 300,000 لاجئ فلسطيني في الجزيرة مقابل مبالغ مالية ضخمة.
حين تأكد "بن غوريون" من أن الرسالة ليست خدعة وأنها تنم عن رغبة حقيقية لدى هذا الرئيس الانقلابي للتعاون مع إسرائيل، تشاور مع مساعديه وقرروا أن الوقت غير مناسب لهكذا صفقات خاصة وأن فرص الرجل في البقاء محدودة. رفض "بن غوريون" بدبلوماسية عرض "حسني الزعيم" بحجة "أن إسرائيل تفضل التركيز على بناء دولة اليهود و ليس على اقتسام النفوذ مع أي كان". "بن غوريون" كان عارفاً بضعف الانقلابي السوري وبأن هذا الأخير كان محتاجاً لدعم الدولة العبرية لتقوية موقفه في اتصالاته مع الأمريكيين. فعلاً، قام "سامي الحناوي" بتخليص سوريا من "حسني الزعيم" في آب من نفس العام، قبل أن يعدمه هو و رئيس وزرائه بتهمة الخيانة.
حافظ الأسد حاز على ضمانات أقوى بكثير من "حسني الزعيم". بعد أن "أهدى" الجولان خاوياً على عروشه لإسرائيل، و سيطر تماماً على كل مفاصل السلطة في سوريا منذ آذار 1969، وظف الأسد فترة "الكمون" هذه لنسج الولاءات والاتصال "بمن يلزم" لتأمين وصوله للسلطة في سوريا بسلاسة و من ثم تحقيق "حلم" حسني الزعيم.
المشكلة أن التفاهم والاتصال المباشر مع إسرائيل غير وارد، فتجربة "الزعيم" و إعدامه بتهمة الخيانة ممكن لها أن تتكرر مع الأسد، فقلائل، من الطائفة العلوية وغيرها، هم من سيقبلون بالتعامل المباشر مع العدو. يجب إذاً استخدام وسائل ملتوية للاتصال بإسرائيل في نفس الوقت الذي يجاهر به صاحبنا بالعداء لها !
الأسد كان بحاجة لنجاحات خارج "صنعة" التآمر ليبني عليها أسطورته. الأسد أراد السير على خطا مثله الأعلى في الغوغائية، جمال عبد الناصر، الذي بنى اسطورته على "انتصاره" على أعدائه أثناء العدوان الثلاثي، في حين أن هذه الحرب كانت كارثية على مصر. "عبد الناصر" تعرض لهزيمة نكراء في حرب حزيران، حين واجه إسرائيل بعدما أشبعها تهديدات جوفاء.
الأسد كان في حاجة ماسة "لانتصار" شكلي على إسرائيل يبني على أساسه أسطورته و يوطد دعائم حكمه. الأسد كان واثقاً من عجز جيشه الممزق عن تحقيق أي انتصار ولو جزئي على إسرائيل، حتى لو رغب، لأسباب موضوعية تتجاوز إمكانيات القطر السوري و إمكانيات حكم البعث الفئوي و الغوغائي. تحقيق توازن عسكري جزئي مع إسرائيل كان يقتضي الانخراط عملياً في حلف وارسو وهو ما لم يكن لا مسموحاً و لا مقبولاً من الدول الكبرى.
ما دام الانتصار مستحيلاً بالنسبة له وفي ظروفه، فلماذا لا يعيد "انتصار" عبد الناصر في 1956 و لماذا لا يفتح حرباً محدودة مع العدو الإسرائيلي لا تكلف هذا الأخير شيئاً يذكر، لكنها سوف تكرس أسطورة الأسد، بطل العروبة، حامي حمى الديار و القادر على رد العدوان الإسرائيلي؟
لكي تكتمل الصورة، لماذا لا يكون الأسد المبادر إلى الهجوم ؟ هذا سيتكفل بمحو عار هزيمة 1967 و قد تكون له حسنات أخرى سيكتشفها الأسد فيما بعد.
لكن، ماذا إذا قامت إسرائيل "بشرشحته" و ببهدلة جيشه العاجز مرة أخرى ؟ ألا يجازف الأسد بفقد السلطة إن هو تهور وفعل ما لا يجوز فعله أو تمادى في تصرفاته ؟ لا بد له إذاً من الاتصال مباشرة "بالعدو" الإسرائيلي والتفاهم معه دون المرور بالدول الكبرى. صديقه، الملك الأردني، الحسين بن طلال له علاقات واسعة مع هذا العدو فلم لا يستفيد الأسد من صلات الملك الإسرائيلية ؟ ألم يقدم الأسد، بطريقة غير مباشرة، للملك حسين رأس المقاومة الفلسطينية رغماً عن أنف "صلاح جديد" و زمرته ؟
إسرائيل ذاتها تعرف قيمة الأسد وخدماته منذ بلاغ سقوط الجولان و الانسحاب الكيفي، و عليها أن ترد الجميل يوماً ما.
في نفس الوقت، كان "ثورجي" آخر في القاهرة قد توصل لنفس الاستنتاج، ولكن لتحقيق أهداف أخرى. أنور السادات وجد نفسه في مركب واحد مع صديقه اللدود حافظ الأسد، حرب تشرين أصبحت لازمة للنظامين في دمشق والقاهرة.
أحمد الشامي.
نشرت في "حريات" جريدة أسبوعية سياسية مستقلة، معارضة للنظام السوري و تُعنى بالثورة السورية العدد 22 في 16 كانون الثاني 2012 http://www.syrian-hurriyat.com/issues/Hurriyat_issue22.pdf

دولة العصابة 7 : حرب التكريس

الأسد أصبح الزعيم الأوحد بلا منازع للجمهورية العربية السورية بعد "حركة" صححت وضعه قبل أي شيء، بقي عليه أن يرسي أساسات متينة لنظامه. السوريون رضوا أساساً بالحكم العسكري أساساً لخوفهم من إسرائيل وعدوانيتها، حالمين بتحرير فلسطين يوماً ما فلم لا يمنحهم حرباً رابحة ؟ الحرب حسب كلاوزفيتز هي "استمرار للسياسة بوسائل عنيفة" لكن الحرب التي تناسب الأسد هي حرب " اوروبلية "

قياساً على رواية "جورج اورويل ORWEL " الصادرة عام 1949 و المعنونة "1984".
اورويل تصور عالماً تتقاسمه ثلاث كتل كبرى تتحارب فيما بينها و تتواجه في حرب أزلية. تتصارع هذه الكتل نظرياً وتتنافس على تقاسم مناطق نفوذ باقية في العالم. تطبق كل من هذه الكتل سياسة توتاليتارية داخلية صارمة قائمة على "أخ أكبر" هو "أب قائد" كلي القدرة و واسع الاطلاع على كل ما يدور حتى في عقول مواطنيه. كل واحدة من هذه الكتل تعطي تسمية مختلفة لنظامها لكن الأنظمة الثلاثة تتشابه لحد التطابق في أهدافها النهائية و في أساساتها الفكرية القائمة على إلغاء الحرية ومصادرة كل فكر مستقل ومحو الفرد.
في نهاية الرواية (الممنوعة في سوريا) يكتشف بطلها أن ليس هناك من حرب ولا من يحاربون. ليس هناك من معارك ولا حتى صراع حقيقي على النفوذ لأن هذه الكتل قد تقاسمت فعلياً النفوذ على باقي بلاد الأرض. كل واحدة من هذه الكتل حافظت على حالة التعبئة والحرب المعلنة و الغير واقعة أصلاً لا لشيء إلا لإبقاء مواطنيها في حالة من الرعب و الخوف الدائمين ، من الآخر الغريب ومن بعضهم. حالة الحرب هذه سمحت بإدامة الطغيان و كانت جد مناسبة للطغاة على عكس المواطنين المساكين المرعوبين من كل شيء. المواطنون، رعايا هذه الدول، يخافون من الوقوع في براثن الاحتلال الأجنبي، من الاتهام بالعمالة لهذا الأجنبي، من أن يوصموا بالتخاذل و بوهن عزيمة الأمة في معاركها المصيرية. باختصار، يخافون من ظلهم و من الحياة ذاتها.
اورويل بنى روايته على حرب حقيقية، نووية، افترض أنها ستجري عام 1950. بدل أن تضع هذه الحرب نهاية للوجود البشري، كانت مناسبة للكتل الثلاثة كي تدعي كل منها أنها "انتصرت" في هذه الحرب على أعدائها، لكن الظروف لم تسمح بتحقيق انتصار نهائي على العدو ينهي حالة الحرب، لذلك لا بد من مواصلة القتال و الصمود حتى تحقيق النصر التام على الأعداء. هذا النصر الذي لن يحصل أبداً لأنه سيضع حداً لوجود الطغيان ذاته. إنها "أم المعارك" في طبعتها الاورويلية والتي لن تقع أبداً.
هل كانت رواية اورويل في ذهن الأسد حين خطط، مع أنور السادات، للهجوم على إسرائيل؟
هناك احتمالان لا ثالث لهما لتفسير وقوع هذه الحرب ومبادرة العرب بالهجوم على إسرائيل: الأول هو أنها حرب حقيقية وشاملة هدفها تحرير الأرض و رد الصاع صاعين لدولة الصهاينة. الآخر هو أنها حرب "تحريك" كما صرح السادات علناً منذ البداية و حتى آخر لحظة.
ماذا تعني حرب التحريك ؟ إنها تعني تذكير العدو والعالم بوجود أرض محتلة وبوجود شعب يعاني ويرفض أن يعاني لوحده، يريد من العالم أن يهتم به وبقضيته و أن يجد حلاً لأزمة ساهم العالم بشرقه وغربه في خلقها.
إن كانت حرب تشرين حرباً مفتوحة فهل كانت الظروف مهيأة لها و هل كان في الإمكان شن حرب شاملة على إسرائيل عام 1973؟
على الجانب المصري يجب أن لا ننسى أن حرب الاستنزاف على طرفي قناة السويس، والتي استمرت ثلاث سنوات بين 1967 و 1970 كانت قد لقنت الاسرائيليين درساً حول صعوبة الاحتفاظ بسيناء على المدى الطويل و الكلفة المرتفعة للاحتفاظ بقواتهم على طول خط "بارليف" إضافة إلى ضرورة مراقبة كل شواطئ سيناء خوفا من تسلل الفدائيين. قبول "عبد الناصر" بمبادرة "روجرز" لوقف إطلاق النار لتسعين يوماً في الثامن من آب 1970 وضع حداً لهذه الحرب التي كانت الأصعب على إسرائيل والتي سمتها "حرب الألف يوم". هذه الحرب هي المثال الحالي للمقاومة بما فيها حزب الله (يوم كان يقاوم...) . مات "عبد الناصر" قبل انتهاء وقف النار وخلفه السادات الذي احترم هذه الاتفاقية.
حدث عكس ذلك في الجبهة الشمالية، فالجولان ظل هادئاً هدوء الموتى منذ احتلاله في حزيران 1967، باستثناء بعض العمليات الفدائية من تسلل وهجوم، لاقت بعض التشجيع من قبل "صلاح جديد" و رفضاً قاطعاً من قبل الأسد. مع وصول الأسد إلى السلطة، توقفت عمليات المقاومة بشكل شبه كامل. كل شيء كان هادئاً على الجبهة الشمالية رغم وجود عشرات الآلاف من نازحي الجولان اكتفى النظام بإسكانهم في ضواحي دمشق الفقيرة مع وعد مبهم "بأن يعودوا يوماً إلى ديارهم".
في مصر، أنور السادات الفاقد للكاريزما وللمشروعية و الذي ورث الهزيمة ، لم يكن في وارد إعادة الشروع في حرب الاستنزاف ولم يكن يقبل باستمرار الوضع على ما كان عليه. الدولة المصرية والمؤسسة العسكرية المصرية التي تعود أصولها الأولى إلى الخديوي "محمد علي" حافظت على استقلالية الجبش و ابتعاده عن السياسة، وهو ما أنقذ مصر من الوقوع في براثن الحرب الأهلية و اضطر "حسني مبارك" للاستقالة عام 2011. الحرب المحدودة التي تعيد السيطرة المصرية على جزء من سيناء و تعيد فتح قناة السويس أمام النقل البحري ومعها موارد مالية مصر بأمس الحاجة لها، كانت ضرورة ملحة للسادات ونظامه
الحرب كانت إذا حتمية الوقوع، أقله على الجبهة المصرية. هذه الحقيقة كانت واضحة للجميع خاصة للأسد، الذي وجد الفرصة سانحة لصفقة جديدة ربما.
إسرائيل من جهتها كانت قد استكانت للضعف العربي وللانقسام المزمن بين أعدائها، لكنها كانت تدرك أن جبهة سيناء بعيدة عن مراكزها السكانية و عالية الكلفة العسكرية، دون مردود سياسي أو اقتصادي، على عكس الجولان الغني بترابه ومائه. من جهة أخرى، تل أبيب تبعد 152 كم فقط عن مجدل شمس، و بخط نظر، بالكاد 100 كم. الخطر القادم من الجولان أكبر بكثير منه من الجبهة المصرية. في سيناء، سيكون على القوات المصرية عبور سيناء بصحرائها وسيتم التعامل معها من الجو. لا خطر وجودياً على إسرائيل من الجبهة المصرية على عكس الجبهة الشمالية.
مع ذلك، كانت التحصينات الإسرائيلية في الجولان أضعف منها في سيناء ! فخط "آلون" ليس خط "بارليف" ولم تكن هناك خنادق مملوءة بالنفط و لا ما يعادل العقبات التي واجهها الجنود المصريون الأشاوس...
لكي لا يفهم أحد خطأً أن جهود الجنود السوريين الأبطال و تضحياتهم لم يكن لها معنى، فالحرب كانت حقيقية و الجنود الذين شاركوا بها قاموا بتضحيات لا تجارى، مع ذلك كانت هذه الحرب محدودة وأدارها الأسد بأسوأ الطرق. لماذا كانت الحرب المفتوحة مستحيلة ؟

أولاً لأن إسرائيل كانت قد أصبحت دولة نووية قادرة على محو أعدائها الذين لم يكن بحوزتهم أي سلاح قادر على مواجهة القنابل الذرية، لا سلاح كيماوي ولا حتى بيولوجي في سوريا ، هذه البرامج سيتم تطويرها فيما بعد، ليس قبل أواخر السبعينات مع مركز الدراسات والبحوث العلمية التابع للقيادة العامة للجيش والقوات المسلحة السورية.
كيف يمكن لدولة تسليحها تقليدي ومحدود، ليست محمية بمعاهدات وليست عضواً في حلف وارسو و لا تتلقى سوى أسلحة روسية محددة سلفاً، أن تهاجم دولة نووية ؟
كان مفهوماً أن يتبع النظام السوري النموذج الفيتنامي مثلاً لتحرير أرضه وللوصول لتوازن عسكري معقول مع العدو الإسرائيلي، لكن الأسد كان سيضطر حينها للخضوع لمتطلبات السوفيت وهو ما لم يكن يريده. الجيش السوري "العقائدي" كان قد تم "تنظيفه" من كل الضباط الشرفاء وذوي الخبرة، "إلا من رحم ربك " فكيف لجيش تعرض لتصفيات منذ نشأته أن يحتفظ بكوادره المؤهلة بل وأن يحارب عدوا في جيشه ضباط محترفون خاضوا عدة حروب منذ الحرب العالمية الثانية ؟
من جهة أخرى، حرص الأسد على عدم نقل المعركة بأي شكل كان إلى أرض العدو و هكذا "ضرب عصفورين بحجر" فهو راعى "الحساسية " الإسرائيلية تجاه راحة مدنييها و لم يعط عذراً لإسرائيل لاستعمال سلاحها النووي أو لضرب نظامه بعنف، لكون المعارك كلها كانت تدور خارج الحدود الإسرائيلية. الاستثناء الذي يؤكد احترام الأسد لراحة بال سكان المدن في إسرائيل هو غارة يتيمة، وفاشلة، قام بها الطيران السوري على مصفاة حيفا بعد تدمير إسرائيل لخزانات النفط في عدرا.
الأسد أعاد في حربه الجولانية نفس "الخطأ " الذي ارتكبه حين أرسل قواته بتحريض من "زملائه السابقين " عام 1970 إلى الأردن ، ولكن دون غطاء جوي ! الدبابات السورية، والتي كانت حينها تقوم بما يجب أن تقوم به في الجولان وليس في درعا أو حمص، ابتعدت كثيراً عن غطائها من الدفاعات الجوية. بفضل "حنكة" الأسد وبراعته العسكرية خسرت سوريا 700 دبابة تم استهدافها من الجو واصطيادها بسهولة، من أصل 1300 دبابة شاركت في الهجوم. الأسد دخل هو وحروبه إلى الأكاديميات العسكرية فمعارك الأسد يتم تدريسها هناك، لا لكي تكون مثلاً يحتذى ولكن كمثال على ما لا يجوز فعله! حرب تشرين على الجبهة السورية تُعطى كمثال على التضحية بالرجال والعتاد عبثاً ودون جدوى.
التجريدة المغربية و القوات العراقية لم "تغامر" مثلها مثل القوات السورية التي تأتمر بأمر الأسد. الأسد، المتآمر المحترف، لكن العسكري الهاوي قليل الخبرة، أعاد نفس الخطأ مرتين ونجح في خسارة حرب كان "محسوباً" له أن لا يخسرها على الأقل. أكثر من ذلك، فكفاءة الأسد وصلت لدرجة فتح ثغرة في دفاعاته سوف تُعرف فيما بعد "بجيب سعسع" . القوات الإسرائيلية الغازية ستمر عبرهذا الجيب لتقترب من دمشق. لولا بطولة عقيد، من الطائفة العلوية بالمناسبة، اسمه "علي جحجاح" كان قائداً للواء السبعين والذي صد هجوم الإسرائيليين في سعسع، لكان الأسد قد "تبهدل" مثلما كان يخشى وربما أكثر.
العقيد "جحجاح" صد هجوم الإسرائيليين وصمد لحين وصول الإمدادات العراقية التي ساهمت في الحد من هزيمة الأسد. هذا العسكري الشريف والبطل قضى بعد أقل من ثلاثة أعوام في ظروف غامضة وخلفه العميد سيء الذكر "شفيق فياض" في قيادة الفرقة الثالثة.
إسرائيل ما كانت لترغب في اجتياح دمشق، المدينة المليونية، على أي حال، ولا كانت تريد السيطرة على ضواحي المدينة حيث يتواجد نازحو الجولان والذين قد ينتهزوا فرصة وقوعهم تحت السيطرة الإسرائيلية للعودة إلى المنازل التي تركوها في الهضبة المحتلة. إسرائيل كانت ترغب بأن تُظهر للأسد من هو صاحب اليد العليا و أن تريه أنه تحت رحمة قواتها، وبالمناسبة سوف تحسن من وضعها على الأرض في أي مفاوضات مقبلة.
آلاف الشهداء والجرحى، أبطال حقيقيون و رجال بواسل عز مثيلهم دفعوا حياتهم ودماءهم للذود عن حمى وطنهم، آلاف المشوهين ومليارات من الدولارات ذهبت هباء من أجل أن يمارس الأسد هواية الحرب التي لا يتقنها. في مصر، تم عزل الشاذلي، قبله انتحر "عبد الحكيم عامر" الذي خسر حرب حزيران.
كل العسكريين يعرفون ثمن الفشل ويدفعونه بإباء، إلا الأسد، فهو كلما فشل ترقى ! الأسد، رئيس سوريا الذي فشل في حرب محسوبة سلفاً، سوف يترقى، ليس قبل "حرب استنزاف " دامت حتى وصول العراب الأمريكي "كيسنجر" في جولات مكوكية ، سوف تنتهي بتكريس الأسد حاكماً مطلقاً للشام و"ما بعد الشام". سيصبح الأسد رجل "المرحلة " الأوحد.

أحمد الشامي http://www.elaphblog.com/shamblog
نشرت في "حريات" جريدة أسبوعية سياسية مستقلة، معارضة للنظام السوري و تُعنى بالثورة السورية العدد 23 في 23 كانون الثاني 2012.
http://www.syrian-hurriyat.com/issues/Hurriyat_issue23.pdf

دولة العصابة 8 : العراب الأمريكي

بعد توقف المعارك على الجبهة المصرية إثر "خرق الدفرسوار" وقرار السادات الأحادي بوقف القتال، بقي الأسد يحارب وحيداً. صحيح أن الحرب كان محسوباً لها أن تكون محدودة وأن لا تكلف الأسد عرشه الدمشقي ، لكن إسرائيل ما كانت لتهدي انتصاراً ولو محدوداً للأسد.

هكذا هي إسرائيل ، لا تضيع فرصة لسحق العرب و إظهار تفوقها عليهم.
بالنسبة لإسرائيل، مجرد عفوفها عن قلب نظام الأسد واجتياح عاصمته في حرب خاطفة ، يعني أن إسرائيل قد قدمت هدية للأسد الذي يستطيع أن يقول لشعبه ، مرة ثانية ، أنه قد فاز في الحرب لمجرد أن إسرائيل لم تسقط نظامه. الحكومة الإسرائيلية اعتبرت أن تجرؤ الأسد على مهاجمتها ثم خروجه هو ونظامه سالمين، حتى مع خسارة أراضٍ جديدة، هي "الانتصار" الذي يمكن للأسد أن يتباهى به و يؤسس حكمه عليه. وزير الخارجية الأمريكي القوي ، كيسنجر، كان له رأي آخر.
لكن، كيف انتهت حرب محسوبة ومحدودة إلى كارثة عسكرية ؟ حرب يشنها جيشان على جبهتين متباعدتين ضد جيش قائم على الاحتياط وتنتهي " ببهدلة " الجيشين !
الحق يقال، ليس الأسد مسؤولاً عن مجمل الكارثة العسكرية في حرب التحريك. الأسد كان يعرف أنه عاجز عن تحقيق انتصارعلى إسرائيل يجعل منه ندا للدولة العبرية ، لكنه كان يأمل الاستفادة من الضغط العسكري على الجبهة الجنوبية لتحقيق انتصارات محدودة في الجولان يطلب بعدها وقف إطلاق النار ويفاوض إسرائيل من موقع قوة . الأكيد أنه لم يكن يرغب في التوصل إلى سلام ستكون فيه نهاية حكمه المطلق، لكن على الأُقل كان ربما سيتمكن من إعادة بعض سكان الجولان لبيوتهم وهو ما كان سيحسب لصالحه كنصر ساحق على العدو. إسرائيل ما كانت لتسمح له بذلك. كفاءة الأسد العسكرية المحدودة زادت الطين بلة وساهمت في مضاعفة الخسائر السورية...
ليس فقط إسرائيل لم تكن تريد تسهيل مهمة الأسد ، السادات أيضاً كان له حساب قديم مع البعث. في مصر كان أنور السادات متمسكاً بجعل حربه حرب تحريك إلى الحد الأقصى، وحرب "تحرير" إلى الحد الأدنى. كفاءة السادات العسكرية وقدراته كانت بمستوى حنكة الأسد العسكرية. بإمكان القارئ أن يتخيل كيف أديرت المعارك على الجبهتين السورية والمصرية ، مع "فطاحل" من عيار الأسد والسادات في مواقع القيادة.
السادات غير الواثق بنفسه والذي بادر قبل الحرب إلى طرد الخبراء الروس، قاد المعارك "على مزاجه" وعزل رئيس أركان جيشه الذي لم يوافق على قراراته في قيادة المعارك.
السادات كان يخشى من ازدياد نفوذ العسكر في مصر ولذلك تدخل في كل شاردة وواردة مع قناعة لا تتزحزح بضرورة عدم التورط أكثر مما يجب في الحرب مع إسرائيل. السادات كان عارفاً بضعف مصر البنيوي وبضعف جيشه وبعدم قدرة العرب على دعمه. قبل الحرب كان السادات قد أحرق مراكبه مع الروس وما كان يتوقع منهم أن يهبوا لنجدته إن هو سقط في متاهة عويصة.
السادات كان في جعبته " جوكر " لعب به في 23 اكتوبر، خلاصته : ترك الأسد ليحارب وحده ! الأسد كان يريد أن يتورط السادات أكثر في سيناء ويسهل عليه المهمة في الجولان ، في حين كان رئيس مصر يجري حساباً مطابقاً ولكن في اتجاه معاكس ! السادات لم ينس أن مصر عبد الناصر كانت قد تورطت في حرب حزيران وخسرت سيناء "كرمى لعيون " البعث السوري الغوغائي. بالنسبة للسادات ، كان طبيعياً أن يدفع السوريون ثمناً غالياً لقاء ما اقترفوه قبل ست سنوات. هكذا تجري الأمور حين يتفق من اعتادوا على الخيانة ، في النهاية يخونون بعضهم البعض...
السادات الغارق في حساباته السياسية الصغيرة كاد ينسى أن بلده في حرب مع إسرائيل مما سمح لآرييل شارون باستغفاله وبعبور قناة السويس باتجاه البر المصري هذه المرة. انتهى الأمر إلى محاصرة الجيش المصري الثالث في سيناء وقطع الإمدادات عنه !
كما عفّت إسرائيل عن "بهدلة " الأسد كذلك امتنعت القوات الإسرائيلية عن سحق الجيش المصري الثالث لأسباب سوف تصبح واضحة فيما بعد. إسرائيل احترمت، في نهاية الأمر "روح ومضمون" حرب التحريك وإن لم تحترم نصها.
مع توقف المعارك في سيناء أدرك الأسد أن فرصته في الوصول إلى صفقة رابحة مع "أزعر" الحي الإسرائيلي تكاد تتلاشى. حينها قرر المخاطرة و اللعب بكل أوراقه دفعة واحدة فكانت حرب الاستنزاف التي ستنتهي في 31 أيار 1974 بتوقيع اتفاق فصل القوات.
حين باشر الأسد حرب الاستنزاف في الجولان ، أدخل الجميع في دوامة هي أشبه بسيناريو الكارثة الذي كان وشيك الوقوع قبل بيان سقوط الجولان المشهور عام 1967.
إسرائيل ما كانت لتقدر على اجتياح سوريا بشكل كامل لأنها كانت ستصطدم بالروس الموجودين بكثافة على الأرض السورية والذين ساهموا في تشغيل الأسلحة السوفيتية الحديثة، وستضطر لقتالهم. لم ترغب إسرائيل ولا أمريكا أو الروس في التورط في مستنقع شرق أوسطي، في حرب أنصار وكر وفر ، يساهم فيها السوفييت من جهة إلى جانب الأسد، وأمريكا إلى جانب إسرائيل . كيسنجر الخارج لتوه من مفاوضات مضنية مع الفييتكونغ والذي أخرج أمريكا من المستنقع الفيتنامي ما كان ليرغب في الغرق في بركة وحل جديدة.
إضافة إلى ذلك، كان اجتياح سوريا سيضع إسرائيل في مواجهة مع أنقرة التي سبق وحذرت من احتلال "الشام الشريف" عام 1967 وسيضع القوات الإسرائيلية في المحصلة في مواجهة مع نازحي الجولان ولاجئي عام 1948 إضافة إلى الشعب السوري كله.
لكل هذه الأسباب تريثت إسرائيل في "تحييد " الأسد وقبلت بوساطة هنري كيسنجر، أقوى وزير خارجية عرفته أمريكا منذ "فوستر دالاس".
لكن من هو كيسنجر هذا ؟
ولد كيسنجر عام 1923 في ألمانيا التي غادرها عام 1938 مع والديه اليهوديين للجوء إلى أمريكا. عمل كمترجم لصالح الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية قبل أن يدرس في هارفارد ويتبوأ أعلى المناصب في الإدارات الجمهورية منذ "نيكسون".
الجانب الخفي في شخصية الرجل هو شدة اعتزازه بيهوديته وخوفه الغريزي من الاضطهاد ومن الهولوكوست الذي نجا منه بفضل العم سام. من هنا ينبع تعلقه الأعمى بإسرائيل لدرجة اصطدامه أكثر من مرة مع "غولدا مائير" رئيسة وزراء الكيان الصهيوني. "أبا ايبان" وزير خارجية

إسرائيل ذكر في مذكراته أن كيسنجر قال لغولدا مائير أثناء مفاوضات فك الاشتباك على الجبهة السورية "أنه أدرى بمصلحة إسرائيل منها ، لأنه كان في ألمانيا وقت صعود النازية ، في حين كانت غولدا مائير تحظى بالأمان في كيبوتز هادئ في فلسطين". هذا هو الرجل الذي فاوض الأسد في رحلات مكوكية لا تعد ولا تحصى بين دمشق و القدس المحتلة والذي "فوضته" إسرائيل بالحديث باسمها وباسم أمريكا مع الأسد.
مطلوب من القارئ العربي لكتاب "باتريك سيل " أن يصدق أن وزير خارجية الدولة الأكبر في العالم جاء لدمشق عشرات المرات ، في نفس الوقت الذي كان فيه "اندريه غروميكو" وزير خارجية الاتحاد السوفيتي المخضرم زائراً شبه مقيم في دمشق، لمجرد التوصل لاتفاقية فك اشتباك وفصل بين القوات ! هكذا اتفاقية يكفي لتوقيعها ضابطان من رتبة رفيعة وبعض الخبراء التقنيين من الطرفين، بحضور وسيط محايد.
لا تحتاج هكذا اتفاقية لوزراء خارجية دول عظمى ، إن لم يكن في الأمر شيء جلل...
يروي كيسنجر في مذكراته أنه مازح الأسد بخصوص "غروميكو" الذي كان ينتظر بفارغ الصبر في السفارة السوفيتية مقابلة الأسد، المشغول "بمنادمة " الوزير الأمريكي. الأسد رد ببرود في خصوص "غروميكو" : "دعه ينتظر وكل عشاءه قبل أن يبرد...". الأسد كان يعرف أن ليس لدى السوفيت سوى فقرهم ليصدروه، على عكس الأمريكي الأنيق و الذي أعطاه دروساً في اللغة الانجليزية "ولكن بلكنة ألمانية".
كيسنجر، من يومها، ما فتئ يبدي إعجابه بحنكة الأسد (السياسية لا العسكرية طبعاً...) و بجسارته و نقل هذه الصورة إلى إسرائيل. بضاعة الأسد أعجبت العراب الأمريكي إلى درجة أنه "خطفها" من يد الزبون الإسرائيلي !
كيسنجر فرض على إسرائيل الانسحاب من القنيطرة و إعطاء الأسد حوالي 600 كم مربع من الجولان (من اصل ما يقرب من 5000 كم مربع) لكي يرفع عليها العلم السوري و يتباهى " بانتصاره " في حرب تشرين التي خسرها ! إسرائيل الغاضبة والحانقة من هذه الصفقة الضيزى، قامت "بفش خلقها" في مدينة القنيطرة التي سلمتها، لكن مدمرة بالكامل.
هل كان كيسنجر محقاً حين قال لغولدا مائير أنه "يعرف مصلحة إسرائيل أكثر منها" ؟ العراب الأمريكي وجد "رجل المرحلة" المناسب للجميع. اتفاقية فض الاشتباك وضعت حداً لكل العمليات العسكرية في الجولان ولا زال هذا الوضع سائداً حتى اليوم. تحررت سيناء وجنوب لبنان والجولان لازال في عهدة المحتل. لا أحد يعرف المضمون الحقيقي لاتفاقية فصل القوات، ولا ما كتب في ملاحقها السرية. لكن على القارئ الحصيف أن يتذكر أن اتفاقية "سايكس بيكو" لم تظهر للعلن سوى حين فضحها "لينين" وقت الثورة الروسية بهدف فضح جشع الغرب الرأسمالي.
على أي حال، من يوم تم توقيع هذه الاتفاقية، أصبح تاريخ سوريا يكتب بلغات عدة ، ليست العربية من بينها.

أحمد الشامي http://www.elaphblog.com/shamblog

نشرت في العدد الرابع و العشرين من "حريـــــــات " ، الجريدة الأسبوعية المستقلة للثورة السورية ، والذي صدر الإثنين 30.01.2012.
http://www.syrian-hurriyat.com/issues/Hurriyat_issue24.pdf